سيرة فاطمة الأسعد (١٩٠٣ ـ ١٩٧٨)

نجلاء حمادة

هي جدتي وأوائل الحب وأكبره. ترددّت أوّل الأمر في الكتابة عنها. أولاً لأنه يصعب الكلام على الحميم والراسخ في العاطفة والكيان، وثانياً لأن واحدنا، في لبنان، أصبح يمجّ الكلام على التمايز والمتميّزين لكثرة ما تمادت الامتيازات، واتّسع مدى ما يسمح الواحد لنفسه أن يتمايز ويتدلّل به على حساب الآخرين. ثم عدت وقرّرت أن أكتب عن فاطمة الأسعد لاعتقادي بفرادة في شخصيتها قد يفيد الشابات والشبان من التمعّن فيها. فالزمن الراهن قلما ترك لنا مجالاً، خارج مجال التربية، للعمل على النهوض بمجتمعاتنا؛ ويقيني أن التربية تكون بالمثل والصورة أفعل ممّا هي بالوعظ والإقناع.

ولدت فاطمة الأسعد سنة ١٩٠٣، على الأرجح. واستنتاجي هذا يعود إلى تأريخ وفاة والدها، عام ١٩٢٤، وهي أخبرتني أنها كانت حينها في الحادية والعشرين من العمر. وتوفيت في ٥ آذار من عام ١٩٧٨ ودفنت في دمشق على مقربة من ضريح السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب. وكانت ولادتها ونشأتها في بلدة الطيبة، من قرى جبل عامل، وبعد ذلك تنقّلت بين الطيبة وبيروت. ولم تسافر طيلة حياتها إلاّ لتحجّ في الحجاز وتزور الأئمّة في العراق والسيدة زينب في دمشق. والدتها مريم العبد الله من بلدة الخيام ووالدها كامل الأسعد، زعيم جبل عامل والمنتخب إلى مجلس المبعوثين، منذ تأسيس ذلك المجلس.

ولا بدّ قبل الكلام على الدور الذي لعبته فاطمة

الأسعد في السياسة من التذكير بأن نشأتها كانت قبل ترسيخ كيان الدولة ـ الوطن[١]، أو الدويلات ـ الأوطان (nation states). فكانت المؤسسات حينئذ لا تزال في طور البناء، ممّا يكبّر دور الزعامات ويعظّم من أهميتها، كما يقوي اللامركزية المناطقية. فالرقعة التي شملها اهتمام فاطمة الأسعد تراوحت بين الاهتمام السياسي بالشأن الجنوبي المحلي، وما يتفرّع عن هذا الاهتمام أو يؤثر فيه من أوضاع السياسة اللبنانية العامة، وبين التعاطي الخيري على المستوى الإنساني، من منطلق ديني وروحاني وربما سياسي أيضاً. وهي تشبه الكثيرين والكثيرات من معاصريها في اهتمامها بمجد العائلة وباستمرارية الزعامة الموروثة «وكرامة البيت»؛ وإن قلّ من جاراها في بذل العمر من أجل غاية واحدة كانت بالنسبة إليها كل الواجب وكل الشرف وكل المسؤولية. ولا شك بأن الفضل في خوض «أم كامل» معترك السياسة يعود أولاً لمعطيات في شخصيتها وثانياً لكون والدها، زعيم المنطقة، لم ينجب أبناء ذكوراً، وأخيراً وليس آخراً لإيمان زوجها، أحمد الأسعد، بذكائها وقدرتها ولإتاحته المجال حتى تكون لها الكلمة المسموعة والفسحة للفعالية، في زمن ومجتمع قلّ ما سمحا بهذا للنساء.

وبما أن التوجّه العام لعمل فاطمة في السياسة كان في الغالب مرسوماً مسبقاً بحسب الخطوط التي انتهجتها عائلتها، وبالأخص حسب أسلوب والدها الذي كان مثلَها الأعلى كما كان مركز انطلاق اضطلاعها بالمسؤولية، فلا بدّ، من أجل سبر دور «أم كامل» وتقييمه، من الإلمام بخصائص عُرفت بها العائلة الأسعدية وبخصائص عُرف بها كامل بك الأسعد، والد فاطمة.

أصلها وعلاقتها بوالدها

تنتسب فاطمة إلى تغلب الوائلية، من آل ربيعة، من قبيلة عنزة القحطانية. وهي عشيرة قدمت جبل عامل من العراق في القرن السادس الهجري، وعُقدت لها زعامة جبل عامل منذ وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ للهجرة. وقد توسّع نفوذ هذه العشيرة أحياناً وانحسر حيناً، حتى مطلع العقد الراهن. ولم يتخلّل هذه الفترة من تنح للعائلة الوائلية عن قيادة دفة المنطقة إلاّ حوالي الأربعين سنة كان الحكم خلال نصفها الأول لآل شكر، ولأحمد باشا الجزّار خلال نصفها الآخر[٢].

---

(١) لا أدّعي أن الدولة ومؤسساتها هي راسخة الآن، لكنن أقول هذا برسم المستقبل، يحدوني الأمل المتفائل.

(٢) انظر محمد كاظم مكي. **الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل**. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٣. صفحة ٢٠؛ ومحمد جابر آل صفا. **تاريخ جبل عامل**. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٨١ (طبعة ثانية). صفحة =

ويصف المؤرخون حكم العائلة الأسعدية (علي الصغير في السابق) بأنه قام على حبّ الناس ومعاضدتهم وثقتهم بشكل قلّ نظيره في أزمنة حكم الإقطاع في لبنان. وقد عُرف عنهم الجرأة والإقدام والإباء وحبّ الخير والإصلاح؛ كما عُرف عنهم الكرم والعفو عند المقدرة[١]. ومن أكثر المتميزين بهذه الصفات ناصيف النصار الذي تكاد وقائع حياته وانتصاراته الحربية تشبه الأساطير[٢]. ومنهم أيضاً والد فاطمة والنموذج الذي اقتدت به، والذي كتب عنه الأمير شكيب أرسلان بعد أن عرفه زمناً طويلاً: «كان كامل بك الأسعد مفرداً في سجايا كثيرة من كرم وعزة ورقة طبع وعلو جناب وشهامة طبع وتوقد حمية وسعة صدر وغزارة حلم ورجاحة عقل... مع التناهي في دماثة الخلق والتواضع وحسن العشرة وسرعة الفهم ولطف المحاضرة...»[٣].

وتستوقفني المفارقة بين ما سمعته من بعض من عرفوا كامل الأسعد عن صرامته في تربية بناته وعن تشدّده بالنسبة لنساء بيته تشدّداً يصل إلى القسوة والمغالاة غير المنطقية وغير الإنسانية أحياناً وبين ما كتبه عنه الأمير الأرسلاني. ولعلّ شأنه مع النساء هو شأن كثير من الرجال في مجتمعاتنا العربية. وفي هذا المقام، قالت «أم كامل» لحنان الشيخ في مقابلة أجرتها الشيخ معها ونُشرت في جريدة النهار عام ١٩٨٣: «أنا وأختي كنّا الموجودتين الغائبتين، لا يرانا أحد، لا يسمع صوتنا أحد، وإذا سمع والدي صوتي كان يدخل غرفتي والنار تتطاير من عينيه»[٤]. وأخبرتني فاطمة أنه أقام الدنيا يوماً لأن المربية نشرت ثياب شقيقتها، التي كانت لا تزال في أعوامها الأولى، في مكان قد يراه رجال.

ومع هذا فقد أحبّت فاطمة والدها حباً جمّاً وأعجبت به رغم شعورها بالغبن والضيق. ولعلّها من فرط حبّها له أرادت أن تعوّضه حرمانه من الأبناء الذكور، ولعلّ حبّها هذا شكل لها تحدياً وحافزاً على العمل لنيل إعجاب أبيها وتقديره، وكأنها أرادت أن تقول له بلغة العمل والبذل: «لا تبتئس لحرمانك من الأبناء؛ فلربما قامت ابنة بالمقام. ولربما فعلت

= ٣٦ ـ ٤٣. والحجّة الشيخ محمد التقي الفقيه. **جبل عامل في التاريخ** (الطبعة الثانية). بيروت: دار الأضواء، ١٩٨٦. صفحة ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(١) محمد مكي. المرجع نفسه. صفحة ١٣٨ ـ ١٤١.

(٢) الفقيه، المرجع نفسه. صفحة ٣٩٧ ـ ٤١٣.

(٣) السيّد محسن الأمين (تحقيق ولده حسن الأمين). **أعيان الشيعة**، الجزء الثالث والأربعون. بيروت: مطبعة الانصاف، ١٩٥٨. صفحة ١٣٥.

(٤) حنان الشيخ. نساء مرتفعات، الحلقة الأولى: «أم كامل». جريدة النهار. ملحق الرياضة والتسلية. الأحد ٧/١/١٩٧٣. صفحة ٨.

هذا بتفان وحكمة لا تتوافر دائماً في الإبن، أو في فرقة من الأبناء». بل قد يكون إثبات مقدرتها إزاء أبيها وحيازتها رضاه وإعجابه بقيتا حافزاً لها حتى بعد مماته. فكما دأبت حتى آخر أيامها على قراءة جزء من القرآن في كل صبيحة لتهديه إلى روح عمّة لها، تدعى ليلى، حدبت عليها في صغرها، ليس غريباً عن شيمها أن تجعل مصلحة المنطقة وكرامة «بيت الطيبة» شغلها ودأبها طوال حياتها وفاء لوعد صامت قطعته لأبيها.

تمثلت فاطمة بما رأته وأعجبت به من مزايا والدها. وهي قالت عنه لحنان الشيخ: «لم يكن بعده رجل... ولن تلد الطيبة مثله قبل أن تمر ألوف السنين... كان أسداً... عيناه تخترقان العيون... نظراته كتيار كهربائي... حضوره القوي كان يتعادل مع شخصيته التي كانت نبع هيبته. وكانت العيون والناس تهابه لا عن خوف، بل عن احترام وشيء من الخوف». وجدير بالذكر، أن ما قالته فاطمة عن والدها يشبه إلى حدّ بعيد ما قاله الناس عن هيبتها وحضورها ونظرتها التي تفقد من تُسلّط عليه بعض إرادته ممّا يسهّل انقياده لها. وأنا أذكر أنني وجدتني أحياناً أقتنع بوجهة نظرها وأنا في حضورها، ثمّ أجد اقتناعي قد تبخّر عندما ابتعد عن مرامي السحر في عينيها. وقد شجّع فاطمة على التمثّل بوالدها ما لمسته في نظرته إليها. قالت للأديبة الشيخ: «كنت أعلم ما يكنّه لي. رغم عدم إظهاره حبه وإعجابه بشخصيتي. ولكن وفي أيامه الأخيرة أشعرني بأني لست كبقية النساء. وهذا الشعور صبّ فيَّ الفرح الممزوج بالثقة ومكنني من نفسي أكثر»[١]. وقد يكون إيثار كل من فاطمة ووالدها، واحدهما للآخر، كبر وعمق بقدر ما وقفت التقاليد دون التعبير عنه، وبقدر ما تخطّت الإبنة المألوف فيما أظهرته من القدرات. ولعلّ كامل بك، الوالد الفخور، قوي في نهاية المطاف على كامل بك، الرجل الشرقي، الذي لا يتورّع عن ظلم بناته من أجل التمسّك بالتقاليد.

وربما ساعد فاطمة على تخطي القيود الصارمة، التي شاءت تربية والدها أن تسربلها بها، كون العائلة الأسعدية عرفت الانفتاح الاجتماعي، بل عرفت سيدات مارسن نفوذاً سياسياً، قبل زمن كامل بك. فخليل بك الأسعد، والد كامل بك كان يتيح الفرص لاجتماع بنات العائلة بشبابها، ويسمح بتعارفهم في فترة الخطوبة. وفاطمة شقيقة خليل بك وزوجة علي بك الأسعد مارست العمل السياسي في زمن زوجها، فـ«كانت تتعاطى الأحكام من وراء الحجاب وتنظر في الدعاوى داخل الحجاب»[٢].

---

(١) حنان الشيخ، المرجع نفسه. صفحة ٨.

(٢) زينب بنت يوسف فواز العاملي. **الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور**. مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية. ١٣١٢ هجرية. صفحة ٤٢٧ _ ٤٢٨.

ولا بدّ أن العلم والشغف به أعانا فاطمة على القيام بالدور الذي اضطلعت به. فهي من عائلة قدّرت العلم وعزّزت علماء الدين. وكان أبناء هذه العائلة يقصدون المدارس مثل مدرسة الكوثرية والمدرسة البطريركية والكلية العامة (International College) في رأس بيروت. وقد تخرّج من الأخيرة أحمد الأسعد، زوج فاطمة وابن عمّها، وكان من زملائه في الصف الدكتور قسطنطين زريق، أطال الله عمره. وبعض نساء العائلة الأسعدية تركن أثراً في الحياة الأدبية. منهنّ فاطمة ابنة أسعد الخليل الأسعد وزوجة علي بك الأسعد، المذكورة آنفاً. والمعروف عن فاطمة هذه أنها احتضنت الأديبة المعروفة زينب فواز وهي بعد طفلة، بعد أن لمست فيها نبوغاً وحسن تهيؤ، فعلّمتها الأدب والشعر والعلوم القرآنية، ممّا أطلق زينب لاحقاً ومنحها شهرة في دمشق ثم في القاهرة(١). كذلك فإن زينب ابنة علي بك وزوجة سهيل الأسعد عُرفت بـ«شاعرة العرفان»، إذ نشرت الكثير من قصائدها في مجلة العرفان تحت هذا الاسم(٢).

أما فاطمة الأسعد، «أم كامل»، فقد قالت لحنان الشيخ: «كنت أقرأ الروايات والمجلات وأي شيء يقع تحت يدي، في السر، ما عدا القرآن الذي أجدت قراءته وتجويده وتفسيره بفضل معلمة أحضرها والدي خصوصاً لتعليمي». وقد حضرتُ في صباي جلسات كانت فاطمة تتحاور فيها مع علماء في الدين حيث كانت لها آراؤها المستقلة وحججها. كذلك، فهي أحبت الشعر وكانت لها فيه نظرة وتقييم؛ ولها فيه محاولات تتمحور حول أولادها. فنظمت قصيدة عندما طُلبت ابنتها زينب للزواج وهي لا تزال في الثالثة عشرة، مطلعها:

ربّاه ما هذا الذي	ملأ الفؤاد تحيّرا
قلباً يصارع عقله	لا يستطيع تصبّرا

وقالت في ابنها كامل أبياتاً منها:

فاز قلبي في مباراة الكمال	فاق في الأوصاف لطفاً وجمال
ليت شعري شامة في خدّه	تستقي من خدّه الماء الزلال

ويمكن القول أن فاطمة التزمت برسالة والدها السياسية ولم تتقيّد كثيراً بما أراده من غلو في التحفظ على النساء. فهي أول امرأة من العائلة تنزع عنها الملاية (البرليم).

---

(١) انظر محمد مكي، المرجع نفسه. صفحة ١٨٣.

(٢) انظر جورج كلاس. «**زينب علي بك الأسعد: شاعرة عاملية وسفور فكري**». جريدة النهار. بيروت: الأحد ١٨/٤/١٩٨٢. صفحة ١٥.

وهي لم تسمح للحجاب بأن يعيقها في عملها، فكانت تقابل الرجال وتحاورهم، دون أن تواجههم (كان الرجل يجلس على كرسي خارج الغرفة، بحيث تراه ولا يراها). وكانت تستعين بالهاتف وبالمراسيل الكثر حتى تكون «الغائبة الحاضرة» العارفة لكل شاردة أو واردة ممّا يتعلّق بالشأن السياسي الجنوبي، إن في القرى أو في العاصمة.

فاطمة، زوجة الزعيم أحمد الأسعد

لم يتسنّ لفاطمة الخوض في خضم الحياة السياسية على نحو مباشر في زمن والدها أو زمن ابنها بالقدر الذي تسنّى لها من خلال موقعها كزوجة لأحمد الأسعد. فزوجها هو ابن عمّها الذي شبّ على حبّها. والذي كان يصغرها بسنوات. كان يخبرنا أنه احتفظ بشريطة وقعت من شعرها عندما كان في الثامنة من عمره؛ وقد رأيته قبل وفاته بيومين يلحّ عليها أن ترتدي ثوباً جديداً أحضرته لها الخياطة ثم يبدي إعجابه بقوامها الغزلاني وطلّتها وكأنهما عروسان.

ولزواج فاطمة بابن عمها قصة لا تخلو من الطرافة، قد تظهر ما كان عندها، منذ صغرها، من جرأة ومن مواهب «سياسية». فبعد أن كان معلوماً أن فاطمة وأحمد سيكونان لبعضهما، حصل خلاف بين كامل الأسعد وإخوته، فعمد أخوه عبد اللطيف، أثناء غياب كامل بك في اسطنبول، إلى خطبة فتاتين من العائلة لابنه أحمد وابن أخيه محمود. وقد أخبرتني الحاجة بهية الأسعد، أنه أثناء الاحتفال بعقد القرانين، نزلت فاطمة وشاركت الصبايا في حلقة الدبكة، حتى لا يقال إنها مستاءة من خطبة ابن عمّها لسواها. وعندما رآها عمها عبد اللطيف في حلقة الدبكة دبّ فيه الحماس فأطلق الرصاص هاتفاً «لعيون فاطمة بنت الأمير»؛ ثم أرسل إليها امرأة من قصره، تدعى لطيفة، فغنّت لها:

يا ظريف الطول ععين القصب طولك يا حلوه يا رمح اللي انتصب
بتعطوا بالمليح ولاّ مناخذ غصب وبيكّ يا فاطمة سلطان بلادنا

وهكذا انقلب الاحتفال بالعرسان إلى احتفال بفاطمة. وعلى الأثر، عاد الوفاق بين الأخوة، وفسخت خطبتا «النكاية» هاتان. وبعد حوالي السنة من هذه الحادثة، وكان قد انقضى ثلاثة أشهر من الحداد على كامل بك، عُقد قران فاطمة وقران أختها خديجة على ابني عميّهما أحمد ومحمود. وقد خُيّرت فاطمة بين ابني عمّها، فكانت الغاية السياسية بارزة في اختيار فاطمة لأحمد، وهو أصغر الشابين، مع أنها تكبره بست سنوات أو سبع، لأنه المهيّأ للعمل السياسي والمناسب للقيام بمتطلّبات الزعامة.

فالزعامة لم تنتقل إلى أحمد بك بالزواج، إذ أنه من الواضح أن عمّه كان يعدّه لحمل

الرسالة من بعده. ويدلّنا على هذا أنه عندما قدم الجنرال غورو إلى بيت الطيبة للمصالحة، بعد أن كان الفرنسيون قد أوعزوا إلى أهالي القرى المسيحية بنهب القرى الشيعية المجاورة لهم وحرقها(١)، بما في ذلك قصر كامل بك، حمله عمّه على إلقاء خطاب في الاحتفال، رغم أنه كان لا يزال في السابعة من عمره. بل إن الاحتفالات التي يروى أنها أقيمت عند ولادة أحمد، واسمه الكامل «أحمد طلال»، تشير إلى اعتباره وريث الزعامة، لكون والده عبد اللطيف الأقرب إلى كامل بك والأكثر اهتماماً بشؤون الناس وبالزعامة. ولا يزال كبار السن يذكرون الحداء الذي تردّد عند الاحتفال بمولده:

بدرين هلّوا عن جبل بدر الدجى وأحمد طلال

ولا بدّ أن يكون أحمد الأسعد قد رأى أن مشاركة فاطمة له في العمل السياسي عون وعضد أكثر ممّا رأى فيها حقاً لها ورثته عن والدها. قالت فاطمة لحنان الشيخ عن مشاركتها لزوجها في القرار السياسي: «كان يقول لي كل شيء، يسمع لي، يأخذ مشورتي، ولا يتزحزح عنها، يتقيد بها، ولأنه جرّب مرة مرتين وخالفني في التصرف تعركجت أموره، وخابت ظنونه في الذين أمّنهم».

فاطمة والمجتمع البيروتي

إذ أمعن الفكر في حياة فاطمة الأسعد يتبادر إلى ذهني القول الجنوبي العامي: «الرمح ما ينحط بالعديلة». فبالرغم من أن «العدِل» هي ما جرت العادات على تهيئته للنساء، وما جرت محاورتهن وترهيبهنّ لولوجه والبقاء فيه، فلا شك أن من تصرّ على أن تكون رمحاً، لا بدّ وأن يخضع مجتمعها لإرادتها. أمّا إذا حاولنا إيجاد تعليل لكون فاطمة «رمحاً» فقد نجد ذلك في قول جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) بأن القريبات من السلطة تكون لهن، كأشقائهن، اهتمامات بالأمور العامة بخلاف البعيدات عنها(٢). وقد ينسحب على فاطمة، لنشأتها في الريف، ما تقوله نانسي شودورو عن

(١) كان الفرنسيون مستائين من انحياز جبل عامل، بزعامة كامل بك، إلى الخطّ العربي بقيادة الشريف فيصل بن حسين. فافتعلوا حادثة تسببت في أيذاء بلدة عين إبل، ممّا برّر لهم توزيع السلاح على القرى المسيحية وحثّها على مرافقة حملة الجنرال نيجر على القرى الشيعية، مخلفة فيها القتل والدمار. لكن الوطنيين والعقلاء ما فتئوا أن فطنوا إلى هذا التخطيط الاستعماري وعاد الوفاق بين الطوائف يعمّ المنطقة. إلاّ أن الفرنسيين حققوا في هذا هدفاً لهم إذ قضوا على «أي أمل للعامليين في الوحدة السورية» (حسن محمد سعد. **جبل عامل بين الأتراك والفرنسيين** ١٩١٤ ـ ١٩٢٠. بيروت: دار الكاتب، ١٩٨٠. صفحة ١٢).

(٢) John Stuart Mill. **"The Subjection of Women"**, In World Classics. Liberty and Other Essays. Edt. John Gray. Oxford & New York: Oxford University Press, 1991. p484.

تأثير نوعية العمل الريفي المنتج لما هو في أساس المعيشة، بالمقارنة بعمل نساء المدينة الذي تلتصق به صفة الكمالية، ممّا يعطي الريفيات، كما ترى نانسي شودورو (Nancy Chodorow)، إحساساً أكبر بقيمتهنّ وبفعاليتهن[١].

وفي هذا السياق، أذكر حادثة أخبرتني فاطمة إياها. قالت، إنّه في أول عهدها بالسكن في بيروت، دعيت إلى حفل استقبال أقامته واحدة من سيدات المجتمع البيروتي. وكانت العادة في ذلك الزمن أن تعيّن السيدة يوماً، يكون مثلاً أوّل خميس أو آخر ثلاثاء من الشهر، موعداً تزورها في عصره السيدات. وقد ذهبت فاطمة إلى ذلك الحفل، فدُهشت إذ وجدت النساء يطلن الكلام على الثياب وما يحلّيها من الأزرار وعلى تفاصيل لم يخطر لها قط أنها تصلح محوراً لحديث اجتماعي. أخبرتني أنها لم تجد في هذا النوع من الزيارات ما يستحق أن يُهدر الوقت في سبيله، فلم تقم بعد ذلك، خلال سني إقامتها الطويلة في بيروت، إلاّ بالنزر القليل من زيارات فرضها واجب التعزية.

ومع ذلك فقد كان مجلسها حافلاً ومتّصلاً إلاّ في صباحات أيام الجمعة حين كانت تقضي الوقت في قراءة القرآن والأدعية. ولا أذكر أنها انتقصت يوماً من قيمة سيدات المجتمع البيروتي؛ بل كان أكبر ثناء تغدقه على واحدة من فتيات العائلة الناشئات أن تقول إنها مؤهلة لأن تكون سيدة مجتمع! وهي إلى ذلك كانت كثيرة الاعتداد بمستوى التعاطي الاجتماعي لدى عائلتها؛ وكثيراً ما فاخرت بكون «بيت الطيبة» مدرسة طالما علّمت أصول الحديث والتعامل بين الناس.

وكانت فاطمة تحلّ في مجلسها الكثير من مشاكل الناس بدراية وذكاء لافتين. ففي أحد الأيام جاءتها امرأة تتظلّم لأنها أنجبت طفلاً من رجل رفض الاعتراف به، وكانت عائلة ذلك الرجل، واسمه باسم[٢]، معروفة من قبل عائلة أحمد الأسعد. وقبل أن تدخل المرأة على فاطمة، حملت إحدى السيدات الطفل إلى مجلسها؛ فما أن رأته فاطمة حتى قالت: «من أين أتيتم بهذه النسخة المصغّرة عن أم باسم؟» وبهذا اضطر الرجل إلى الاعتراف بالطفل بعد أن جزمت فراسة فاطمة بأبوته له.

ورغم انغماسها بالسياسة فلم تر في الموقع السياسي امتيازاً يسمح للإنسان أن يتقاعس عن «الكفاح الأكبر» مع الذات، فكانت تقول: «إن قيمة أي إنسان هي في شيمه وعقله ودينه؛ وإن ماهية ذات الفرد هي رأسماله الحقيقي الذي لا يأخذه منه أحد والذي

---

(١) Nancy Chodorow. **"Family Structure and Feminine Personality"** in Women, Culture and Society. Edt. Michelle Zimbalist Rosaldo and Louise Lamphere. Stanford, 1974, p.64.

(٢) ليس هذا اسم الرجل الحقيقي. وقد غيرت الاسم حتى لا أسيء إلى ذكرى الرجل أو إلى الأحياء من أقربائه.

لا يهزمه فيه إلاّ من هو أفضل منه». وكانت مقتنعة بأن الموقع السياسي أو الاجتماعي ما هو إلاّ منبر تظهر من فوقه صفات الفرد، فإن كانت صفاته حسنة أضاءت وإن كانت سيئة ارتدّ المركز المرموق وبالاً عليه إذ يشهر نقائصه. وقد قالت لي عندما أفلح الحكم الشمعوني في إسقاط زوجها في انتخابات ١٩٥٧: «ليس المهم النجاح أو الفشل. الأهم منهما أن يكون الإنسان مثالاً يُحتذى في النجاح الدمث والفشل الأبي».

وللإحاطة بما قامت به فاطمة الأسعد في مجال عملها بالسياسة، لا بدّ من ذكر نشاطها في إعداد الطعام من أجل استضافة الأعداد الكبيرة من الوافدين على دار الطيبة، ولا بدّ من ذكر نشاطها في تكريم آل البيت وعقد مجالس التعزية، إلى جانب عملها الأساسي في معترك الحياة السياسية وما تحتّمه السياسة من خيارات دقيقة وصعبة ومن تحالفات وخصومات. وسأختصر في الكلام على كل من هذه النواحي.

الضيافة

منذ أن كانت فاطمة مراهقة في بيت أبيها وهي مسؤولة عن القيام بأود الضيافة في تلك الدار المعروفة بضيافتها، ممّا جعل الأمير شكيب أرسلان يشبه كامل الأسعد بحاتم الطائي وجعفر البرمكي وغيرهما من الشخصيات العربية المشهود لها بالإحسان وإكرام الضيف[1]. وكان إعداد الطعام من أجل استقبال الوافدين في العيد أو في احتفال أو مهرجان يستغرق أياماً عديدة. وقد أظهرت فاطمة موهبة في إدارة وتنسيق عمل الأعداد الكبيرة من النساء، وقد ساعدتها في ذلك لاحقاً شقيقات زوجها. فكانت مثلاً تقسم اللحم المطلوب لإعداد الكبة مرسلة كيلو منه إلى كل بيت في القرية والقرى المجاورة لكي تقوم النساء بدقّه على «البلاطة». ثم يمرّ الموزعون لجمع اللحم المدقوق وحمله إلى الدار حيث تتحلّق النساء حلقات يصنعن أقراص الكبة والسفيحة وغيرها من الطعام الناشف الذي يصلح «زوادة». وهذا كان يستغرق من الوقت والتنظيم أكثر من إعداد مناسف «الخروف المحشي» وغيره من الأطباق التي ترصّ على الطاولات في الخيم الكثيرة المنصوبة لهذه الغاية في يوم الاحتفال. أما سلال «الزوادة» فكانت تُعدّ بأسماء القرى وبحسب ما يلزم لكلّ منها، فمن لا يتسنّى له الوصول إلى الموائد تكون على الأقل له «زوادة»، فلا يرجع أحد من الوافدين إلى دار الطيبة جائعاً. ومن يصل إلى الموائد، تلبي «الزوادة» حاجته في طريق العودة.

---

(١) الأمين، المرجع نفسه، صفحة ١٣٥.

مجالس التعزية

أخبرتني بلقيس الأسعد، إبنة شقيقة فاطمة، أن خالتها روت لها أنها في أحد أيام شبابها الأول، وكان الطقس ممطراً وبارداً، رأت من نافذة غرفتها جنازة يهرول حاملوها بالنعش اتّقاء للبلل. وقد جعلها هذا المشهد تفكّر في قصر الحياة وهشاشتها وبوحدة مصير الفرد في نهاية المطاف، حيث يعنى كل إنسان بشأنه ولا يعضده أو يرحمه أحد. وقد جعلها ذلك المشهد تعمل الفكر في الموت وتخاف الحساب. وأخبرتني بلقيس أن خالتها قالت لها إنها منذ ذلك اليوم وهي لا تسمح لنفسها بنسيان الموت والآخرة ولا تتوانى عن التقرّب من الله بالعبادة والإحسان. كما أخبرتها أنها بعد ذلك اليوم كانت كلّما رافقت شقيقتها إلى السوق، تدع الشقيقة تشتري ما يلزمها وما يحلو لفتاة شابة أن تقتنيه؛ أمّا هي فكانت في آخر لحظة، وقبل شراء أي حاجة ترغب فيها، تحجم عن ذلك وتقرّر بأن إعطاء الثمن إلى محتاج هو أنفع له كما هو أجدر لها، من أجل آخرتها. وأخبرتني الحاجة أميرة الأسعد أن فاطمة دأبت على توزيع الحسنات في شهر رمضان وفي العشر الأولى من شهر محرّم وفي أيام الجمعة. وقد قال لي الشيخ مهدي صادق أن فاطمة كانت تزوّده بلائحة بأسماء مرضى السلّ المحتاجين في مصحّ بحنّس وهملين والباروك وتعطيه مخصصات معينة يحملها لهم، يرافقه سلمان سليم، في أول كل شهر. وأنا أعرف كثيرين ممن وقعوا في الحيرة في إيجاد من يعتمدون عليه بعد وفاتها.

وقبل مجيء فاطمة الأسعد إلى بيروت، أوعزت ببناء غرفة في النبي يوشع، على مشارف فلسطين، كان تقصدها للتعبّد في زيارات رجب وشعبان. وبعد قدومها إلى بيروت كانت تقيم مجالس عزاء الحسين في الأيام العشرة الأولى من كل محرّم في منزل له حديقة فسيحة على البسطة، بمحاذاة مدرسة حوض الولاية الرسمية الحالية. ثمّ بنت في منزلها في الغبيرة حسينية فسيحة زينت جدرانها بصور الكعبة وقبر النبي محمّد وقبور الأئمة. وفي الحسينية شاركتُ في سني صباي نساء العائلة وبعض صديقاتها في إحياء ليالي القدر حتى الصباح. أمّا في أيام عاشوراء فكان المئات من النساء يتجمعن كل يوم لسماع قراءة أخبار معركة كربلاء ومدائح أهل البيت. وكانت «أم كامل» تطلب من قارئي مجالس التعزية أن يبتعدوا عن المبالغة في التفجّع وعن رواية الأخبار التي لا يقبلها العقل، طالبة إليهم الاقتصار على الأخبار التاريخية وعلى التركيز على المزايا الخلقية والبطولية لأهل بيت النبوة. أما الثامن من العاشوراء، من كل عام، فهو يوم كانت فاطمة تقيم فيه عرس القاسم ابن الحسن الذي تزوج من سكينة بنت

الحسين قبل ذهابه إلى المعركة ومقتله ذوداً عن عمّه وآل بيته وهو في الحادية عشرة من عمره. وكانت إحدى بنات العائلة الجميلات والمميزة بصوت حسن ترتدي الثوب الهاشمي ممثلة دور سكينة، فتجلس فوق «الزفة» بينما تطوف حولها الصبايا بالشمع والحنّاء. أمّا اليوم العاشر من محرّم فكان محور شعائر الحزن على مقتل الحسين. وكان المحتفلون يصومون في ذلك اليوم إلى ما بعد قراءة مصرع الحسين بأكمله، وعندها كانت توزّع الحسنات والطيبات عن روح آل البيت.

ومن أخبار «عناية» آل بيت النبي بفاطمة، «أعجوبة» طالما سمعت الكلام عليها من العائلة وبين المقربين منها. ذلك أن فاطمة أصيبت في أواخر الحرب العالمية الثانية بداء السلّ. واشتدّ عليها المرض حتى فُقد الأمل من شفائها. وإذ كانت العائلة خائفة مشفقة من الأسوأ، ظهرت فاطمة الزهراء لخديجة، شقيقة فاطمة، في المنام لتعدها بأن شقيقتها لن تعاني من أي مرض في رئتيها بعد اليوم. وبعد هذه الرؤيا شفيت أم كامل ودُهش الأطباء من التغيّر المفاجيء الذي لمسوه في صحتها ولم يدروا له سبباً! حتى أنها في مرضها الأخير بقيت رئتاها سليمتان حتى بعد أن وهن جسمها وتوقفت معظم وظائفه.

نشاطها، أو أنشطتها السياسية

قد يتساءل المتسائلون عن إمكانية النشاط السياسي من خلف الحجاب. والواقع أن هذه الناحية من حياة فاطمة هي أكثر ما يثير العجب وأكثر ما يظهر ما كان لها من مقدرة فذة. قالت لحنان الشيخ: «كان خصومنا أقوياء وبعون الله كنّا ننتصر عليهم. كنت أطّلع على كل شيء، بعد أن أطلب من ابن عمي أن يقص عليَّ أخباره اليومية، من كلّم، ما قيل له، ماذا فكّر... كل يوم أجري وراء التفاصيل، حتى تدلني على القضايا الكبيرة المهمة. ومن كثرة ما سمعت من تفاصيل صرت أعرف ماذا يلبس فلان وعلان من رجال السياسة، ومذا يأكلون، وماذا يشربون». ولم يكن ابن عمها أحمد هو الوحيد المكلّف بإطلاعها على الأمور، كبيرها وصغيرها؛ بل كانت تبث رجالها في الجولات الانتخابية وفي الاحتفالات، وتسألهم من أتى من القرية الفلانية وإن كان فلان قد أتى مع أولاده أم بمفرده. كانت تطلب إليهم استقصاء أمر فلان إن لم يكن حاضراً، وكانت ترسل في طلب المفاتيح الانتخابية والمتنفذين لتعطيهم تعليماتها. وكثيراً ما قصدتها أمهات أو زوجات الراغبين في ترشيح أنفسهم للانتخابات، أو المستوزرين، لعلمهم بما لها من تأثير في التقدير والاختيار. وأحياناً كانت تقابل الرجال المعنيين أنفسهم بالطريقة التي درجت عليها.

ومن المواقف السياسية التي اتخذتها تفضيل حميد فرنجية على كميل شمعون في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٥٢، لكن أحمد بك فضلّ شمعون. وقد ذكّرت زوجها مراراً بصواب رأيها وبتعثّره كلّما خالفها بعدما عمل شمعون، فور انتخابه وطوال مدة رئاسته، على إضعاف زعامة أحمد الأسعد. وهي كانت مع السير في التقرّب من خط جمال عبد الناصر، بينما كان زوجها يعجب به ويتابع خطبه دون أن يظهر ما يكنّه له. وهي شجعت ابن عمّها على الذهاب على رأس وفد كبير لزيارة عبد الناصر في دمشق، وذهبت معه لمواكبة الزيارة عن كثب. وكانت في تخطيطها السياسي لا تسمح بأن يتبوأ أسعدي غير أحمد أو كامل مركزاً مرموقاً. وقد أخبرني السيد حكمت الأسعد أنه في عام ١٩٤٥، أراد سامي الصلح أن يوزّر رضى التامر، وكان أحمد الأسعد مسانداً لهذا الأمر؛ إلاّ أن أم كامل رفضته بكل قوتها واتصلت برئيس الجمهورية بشارة الخوري ضاغطة من أجل توزير محمد الفضل بدل رضى التامر، وكان لها ما أرادت. وكان بعض المرشحين يدعون «مرشحي أم كامل» لأنها كانت تفرض انضمامهم إلى اللائحة الأسعدية، ومن هؤلاء أقرباؤها من آل العبد الله. وقد أخبرني الشيخ مهدي صادق أنه في انتخابات ١٩٤٧ الشهيرة، ترشّح على لائحة الأسعد السيد علي بدر الدين وفاز، إلاّ أن المعادلات السياسية اقتضت أن يتمّ إفشاله وفوز سواه، وكان قد أنفق من المصاريف الانتخابية ما جعل فشله فشلين، ففرضت أم كامل أن يعوّض عليه أحمد بك كل ما أنفقه، وساندت ترشيحه في الانتخابات اللاحقة ممّا أوصله إلى مجلس النواب.

نهاية حياتها

في آخر آذار من سنة ١٩٦١، توفي أحمد الأسعد فجأة إثر نزيف في المعدة وهو لم يتعدّ الحادية والخمسين من عمره، فتغيّرت من بعده حياة فاطمة، حتى أنني سمعتها عدّة مرات تقول: «محظوظة من تموت قبل زوجها ولو بساعة واحدة». ولكنها بقيت على دأبها بالعناية بالأوضاع السياسية، وبالاهتمام بما يفعله ابنها كامل في هذا الشأن. وبالرغم من حبّ كامل الكبير لوالدته وبالرغم من برّه بها وحدبه عليها، إلاّ أنه لم يكن صبوراً كوالده على محاورتها في شؤون «المصلحة»، ولا كان يأخذ برأيها بالقدر الذي كان والده يفعل. ومن الأمثلة على اختلافهما في الرأي ما حصل من معارضة كامل للنهج الشهابي في الوقت الذي كانت فاطمة تريد منه البقاء ضمن ذلك النهج. لكن فاطمة لم تتوان عن دعم ولدها ومساندته حتى عندما لم يتفقا في الرأي. وكان من حرصها عليه وعلى «كرامة البيت» أنها عندما دعا كامل إل مسيرة إلى السراي في ٣٠ حزيران

من عام ١٩٧٠ دعماً للمقاومة واحتجاجاً على عدم تنفيذ الحكم لمشروع الليطاني وعلى تقاعس الدولة في التعويض على ضحايا القصف الإسرائيلي، كانت والدته تواكب المسيرة عن كثب من سيارة «فولزواغن» صغيرة. ولم تعد إلى المنزل إلاّ بعدما اطمأنت إلى نجاح الخطوة التي قام بها كامل، وبعد أن استمعت إلى الخطاب الذي ألقاه في الجماهير الغفيرة من أبناء الجنوب ممّن لبوا دعوته في ذلك اليوم.

آخر مرّة رأيتها فيها كانت في شهر آب من عام ١٩٧٧ في بلّونة، حيث أقامت ردحاً من الزمن أثناء الحرب. زرتها لأودّعها قبيل السفر إلى أميركا لمتابعة دراستي. وبعدما أدرت محرّك سيارتي قاصدة العودة إلى بيروت سمعت عدداً من النساء ينادينني بإلحاح من على الشرفة، ناقلات إلى طلبها في أن تودّعني مرة ثانية. عندما عانقتها هالني ما لمسته من هزالها، إذ أن الحيوية في وجهها والتوقّد في عينيها ما كانا لينبئا عمّا في جسدها من وهن. وعندما رأت الدموع على خديّ، نظرت إلي نظرة تكاد تكون زاجرة بقدر ما هي حانية. فهي لم تكن ترغب في مشهد حزين تظهر فيه على غير ما تحبّ من القوة ورباطة الجأش أو أظهر فيه أنا على غير ما ربتني عليه من التجلّد والصبر على ما تسوقه الحياة.